الشوق والنداء

قصة بقلم رشاد أبو شاور

ـ الشوق ـ

جسر المندسة ، يقطع الطريق الترابي الراحل من الاسفلت جنوبي الكرامة ، والمؤدي الى مخيم النويعمة . في الغرب مباشرة ، تحته يتلوى النهر ضحلا ، ضاربا الى الخضرة ، وعلى حافتيه ـ غابات من البوص الاخضر تلقي بظلالها المتشابكة على صفحته الرائقة . والى الشرق من الجسر ، تتأفعى الدرب بين التلال الرملية الناعمة الملتمعة تحت شمس لاهبة .. هناك ينتصب بيت وحيد أجنبي من حجارة ناصعة ، تحيط به اشجار الحور والكينا . في الليل كان الجنود يتحركون لاخذ مواقعهم المتقدمة ، جارين معهم رشاشاتهم الضخمة ، وعيونهم وآذانهم ، واصابعهم كلها تتحفز ، وفي أعماقهم ذكرى قريبة .. كلهم تركوا مواقعهم القريبة من القدس والخليل أبان المعركة .. رحلوا ، دونما حرب .. لو سألت احدهم : ((ماذا تبتغي الآن ؟)) لاجابك ((المعركة .. لا يهمني أن اموت . فقط ، اتمنى أن يمحى عار الحرب التي لم اخضها من أعماقي)) .

يصلون الى حافة النهر الشرقية ، ثم يلبثون في مطارحهم . لا يبرحونها ، حتى مطلع الفجر .. الاوامر هكذا .. ان تقدم العدو دافعوا .. هذا ما يعرفه كل واحد منهم .. لكن متى المعركة ؟ لا أحد يدري ..

وهكذا ترسبت في أعماقهم آلام مؤسية . لقد طالت الايام عليهم ، والسلاح لا يتغير ، والعدو يجثم قبالتهم . وذوو البدلات المبرقعة يعبرون النهر ، يضربون ويعودون ، وفي أعماق الجنود تتحرك روح الجندي .. وتطفو الاسئلة دونما أجوبة معقولة او واضحة ..

ـ هل نتفرج عليهم كيف يموتون ؟

ـ لماذا لا نعبر مثلهم ؟

ـ هل مهمتنا أن نسهر على النهر ليلا ، ثم نرحل في فجر كل يوم الى امكنتنا العنيدة في جبال الكرامة ؟

وكان (يونس) يفجر تلك الاسئلة ويحركها على الالسن ، ويمضغها مع وجبات الطعام ، وجرعات الشاي ... والويل لمن يحاول تهدئته وطمأنته ، بكلمات مهدهدة كسلى .. حقا ان رفاقه يعترفون بشجاعته ووطنيته ، لكن بعضهم بدأ يضيق ذرعا به وبرتابة الحياة تلك ... وكأنهم أرادوا أن تختبىء احزانهم وعارهم في طبقات سفلى من افئدتهم، ثم يحكم عليها الاقفال وتنسى .. لكنه السبب ، يونس ، ذاك .. لا ينفجر اللغم في الارض المحتلة الا ويعلو صراخه ، وتربد ملامحه ، ويخوض معركة وهمية مع نفسه ، وصحبه .. ومع العدو .. مرات يطلب غطاء جويا ، وتارة ، سلاحا نظيفا ، جيدا .. ((السلاح الامريكي زفت)) ..

ولقد طالما تغيب في النهار بحجة قضاء الحاجة .. لكن صاحبه (محمود العبد) تتبعه ذات نهار ، حين تصاعدت شكوكه ، فألفاه يصعد مسربة تتسلق الجبل الرابض خلف مواقعهم .. وأدرك (محمود العبد) يومها ، أن (يونس) يقضي أوقاته المسروقة ، مع الفدائيين .

***

سرح (محمود العبد) بخواطره بعيدا ، واخذت تمور في اعماقه أشواق لا حد لها ، لمطالعة وجه صاحبه (يونس) .. لقد انقضت ايام طويلة قاسية ، ولم يأت عنه خبر .. اختفى هكذا ، دونما سابق انذار..

تنبه من شروده على صوت الضابط (عبد الجبار) : طلبت اجازة ؟

ـ نعم سيدي .

مد الضابط يده بالورقة : ـ خذ .. يومان ..

طواها (محمود العبد) ووضعها في جيبه ، بعد ان أدى التحية ، وانصرف .. ثم لم ملابسه المتسخة ، ولفها في كيس ، واتجه الى الاسفلت .. وقبالته لاحت المسربة ، المؤدية ... الى ذوي البدلات المبرقعة .. فابتسم ، وحدث نفسه قائلا : سأذهب اليهم بعد الاجازة .. واقسم في داخله ، ان (يونس) صار واحدا منهم .

ـ النداء ـ

تنهد ، وظلت نظراته مشدودة الى الامواج ، غير البعيدة ، وهي تصخب على الشاطىء ، مخلفة وراءها ، الزبد ، الذي لا يني يفور بين الحجارة البنية . ركز صفحة خده على راحة يده المفروشة ، واصطبغت ملامحه بلون وجه أم ثكلى تمدد ابنها امامها ، فبكت عليه بحرقة حتى جفت الدموع .. تنهد بحرقة ولوعة ، لكن صاحبه ظل يغط في نومه ، وقد تواتر شخيره المزعج ، وانهار بدنه في قاع الخندق ، وارتمت بندقيته الى جواره .

سينتظر حتى ينبلج الصباح قليلا ، ليتمكن من مراقبة الامكنة المعادية ثم يتحرك بخفة ، ويحمل الجثة على ظهره .. وتطلع الى صاحبه الذي ما زال نائما لو يفيق هذا البني آدم ، ليغطي ظهري ، اذا اكتشفني العدو . وارجأ ايقاظ صاحبه بضع دقائق اخرى كي يتأكد من سلامة الموقف .

استدرك في ذهنه : اذا ما حدث أشتباك مع العدو ، ماذا نقول للضابط ؟. هل سنخبره بالحقيقة ؟. هل نقول له ، رأينا احد الفدائيين يتعرض لنيران العدو ، ثم يستشهد ؟

لا ، لا يمكن ان يظل جسده هناك ، ليمثلوا به ، او لتلتهمه الوحوش ... وما هي الا لحظات وهو غارق في تفكيره ، حتى تفجر اللهب ، وهدرت المدافع ، وتمازجت اصوات الرشاشات من كلا الجانبين ، وحزر في نفسه أن تكون المعركة في منطقة الكرامة .. فالاصوات قوية وقريبة .. ومرقت في الجو طائرات ، ثم حومت ، واخذت تفرغ من جوفها حممها الرهيبة ..

هكذا دارت المعركة في جنين ... ابتدأناها بالزغاريد ، وصهلت مدافع دباباتنا ، يومها .. اخذنا نتوغل .. آه .. آه .. لقد شاهدنا بشائر النصر بأعيننا .. اخرسناهم بنيراننا التي طال صمتها .. ولكن عند العصر ظهرت طائراتهم .. وتقهقرنا .. وكانت عيوننا تتجه الى السماء .. وقلوبنا تصرخ ، أين أنت يا طائراتنا ؟.. لكن ..

وحين الفى صاحبه ما يزال على حاله ، هزه بعنف :

ـ افق يا رجل .. أفق .. الدنيا تحترق ، الا تسمع ؟

ـ ها .. ها .. اعوذ بالله من الشيطان ..

ـ اعوذ بالله من النوم .. ومن اليهود .. متى نصحو بجد ؟. كأننا جميعا أصبنا بداء النوم ..

حدق صاحبه فيه ، بعينين ذابلتين محمرتين :

ـ ماذا تريدني ان افعل في هذا الاستحكام اللعين ؟..

ـ اسمع ، أترى تلك الجثة ؟

ومد سبابته مشيرا صوبها ..
ـ آه .. أراها .. تماما .. تبدو مثل حجر كبير ..
ـ انها جثة فدائي .. لقد رأيته يتجه الينا ، لكنهم تنبهوا لوجوده قبل ان يتمكن من الوصول الينا ..
ـ فهمت .. تريد الاتيان به .. ها ؟
ـ رائع .. اذا تعرضت لخطر احم ظهري بالرشاش .. ها ؟
واستدرك صاحبه : لكن .. ماذا نقول .. لو .. لو ..
ـ اسكت ، لا أطيق ان يظل مرميا هناك ، ونحن نقبع ، نفكر فقط في الاوامر ..
ثنى جذعه ، وأخذ يحبو على يديه وقدميه ، ورأسه يندفع الى الامام ..

***

لم يكن يفكر بغير العودة بالرجل وسلاحه . اضطرب تنفسه . أحس بانقباض فظيع يكاد يخنق صدره . ولعن في داخله كل انواع التبغ ، لكن ما الذي يفعله ليمضي الوقت الطويل في النهارات ؟ كان كلما اقترب من مكان الجسد المسجى ، يعلو في اذنيه نداء غريب ، يشده الى امام . فيسرع في حركته ، رغم ضيق تنفسه ، والكرب الذي ألم بصدره ... أخذ النداء يتصاعد ، ويتحول الى هدير جبار يبعث في الاوصال رعشة غير محددة المعنى . انه يذكر ، ما يزال ، يوم كان في اجازة ، واشترك في جنازة شهداء « معركة الكرامة » . لقد اذهلته « عمان » لم تكن هي تلك تلك المدينة التي خبرها ، صامتة ، حزينة ، دائخة ، غب النكسة . يومها ، سار ، ذاهلا ، ضائعا بين حشود الجماهير الزاحفة ، التي لا حد لها ، رأى الصناديق الخشبية ، منسابة من مكان الى آخر .. وصم الآذان هتاف الجماهير ، وعرس السلاح ، فتندت عيناه .. وما عاد يعرف كيف تسير قدماه .. وعلا نداء مشابه .. ولاح له كأن الخلق ينبعثون من أعماق البحر الميت ، ويتقدمون ليحملوا الجسد على رؤوس اصابعهم .. فتقدم ، وحين وصل الى المكان ، اكتشف انه لم يكن بعيداً عنهم ، وهذا سبب عدم جرأة اليهود على المغامرة والاقتراب .. كانت البندقية تتمدد الى جوار الرجل ، وقد شدها الى صدره ، كأنما يخشى ان يحاول احدهم سرقتها منه .. أرسل نظراته باتجاه الخندق ، حيث يقبع صاحبه ، فلمح فوهة الرشاش مشرعة نحوه .. عندها غمره شعور بالرضى ، وما ان هم بملامسة الجسد ، حتى ، دوى صوت عيارات نارية كثيفة لم يحدد مصدرها . وردت عليها زخات اخرى ، أكثر عنفا . وضع البندقية تحت ابطه الايسر ، وشد بيمناه منكب الرجل الايمن ، جاعلا كل الثقل على ظهره ، متجها بسرعة الى المواقع . ومع تزايد احساسه بالخطر ، واقتراب الاجل ، اندفع باقصى ما لديه من قدرة على السرعة .. وتبدى امامه المدفع الرشاش ، وفوهته تتحرك في اتجاهات كثيرة من مواقع العدو .. فقال في سره : « حياك الله ، ايها البدوي ، العنيف . ما اروعك حين تستيقظ » .

***

ما ان تهاوى ، حتى أحس بسخونة في فخذه الايسر ، ارتخت ساقه ... وصرخ به صاحبه ، وهو ما يزال يواصل ارسال النيران :
ـ ابك شيء ؟
ـ يبدو انني أصبت في فخذي ..
ـ لا يهمك .. لقد نجوت بمعجزة ..
ـ هيا بنا .. لنحمله الى « مواقعهم » ..
ـ وانت .. أتقدر على المشي ؟..
ـ سأحاول .
اخذ الجندي يسير متكئا على البندقية .. وقد ملأ سامعتيه صوت جبار هائل يذكر بنداء الجماهير ، وهي تشيع جنازات رجال الكرامة . وواصلا سيرهما باتجاه موقع السرية .

عمان

رشاد ابو شاور

هكذا انتصر « الفيتكونغ »

بقلم

ريمون نشاطي

« فقد « الفيتكونغ » منذ ان دخل في حرب المواجهة المباشرة مع اميركا ما يقرب من نصف مليون مقاتل ، خلاف الجرحى والاسرى ولا سيما الذين تلفت اعصابهم وانهال عليهم اليأس .. ورغم ذلك ، صمدت الجبهة ، وواصلت الكفاح بعزم أكبر ، وبقدرة دفاعية أقوى حتى استطاعت أن توجه ضرباتها المتتالية في قلب العاصمة سايغون التي تنتظر الآن هجوما كاسحا عليها ...

« لقد استطاعت الجبهة ان تقود كفاح الجماهير الشعبية وان تصمد ببطولة امام اكبر واقوى دولة في العالم .. وقد اقتنع العالم كله بشرعيتها ولم يبق الآن سوى الاعتراف بها رسميا ، ومن جانب الولايات المتحدة اولا .. وهكذا انتصر الفيتكونغ » .

كتاب نحتاج اليه الآن ، لانه يحمل لنا دروسا كثيرة في نضالنا وكفاحنا لاسترداد ارضنا المسلوبة ..

٢٥٠ ق٠ل

صدر حديثا